التضاد في الصورة والمشهد في شعر ابن زمرك الغرناطي

د.عواطف محمد حسن

مقدمة

لابد لنا قبل البدء بدراسة اي مصطلح ان نتعرف على جذوره الغوية التي يمكن ان يكون معناها ملتصقا الى حد كبير بالمعنى الاصطلاحي ف التضاد في اللغة الضد كل شي ضاد شيئا ليغلبه والسواد ضد البياض والموت ضد الحياة تقول هذا ضده وضديده والليل ضد النهار اذا جاء هذا ذهب ذاك ويجمع على الاضداد(١) وضد الشيء وضديده وضديدته خلافه الاخير عن ثعلب، وضده ايضا مثله عنه وحده والجمع اضداد ولقد ضاده وهما متضادان وقد يكون الضد جماعة والقوم على ضد واحد اذا اجتمعوا عليه في الخصومة وفي التنزيل ويكونون عليهم ضدا(٢) التضاد هو التباين والتقابل التام وضد الشيء خلافه فالسواد ضد البياض والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار، اذا جاء هذا ذهب ذاك. لذلك قيل ان الضدين لايجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة ولكن يرتفعان، ومن شرط الضدين ان يكونا من جنس واحد كالبياض والسواد. ويكون بينهما حد وسط يكون بديل لارتفاعهما، والتضاد مجموعة من الظواهر الوجودية التي لادخل للانسان فيها وفي سيرورتها واستمرارها، وفي اساليب التعبير البلاغية يظهر التقابل الاعتباري الذي يجمع بين الاضداد باعتبار الصورة التي تجمعهما والمشهد الذي تنطق به الصورة، وهو اسلوب تعبيري يجمع المعاني والافكار والصور من اجل غايات فكرية تعكس قدرة المواجهة بتقديم معانروما يقابلها. وهذا لا علاقة له بالطباق البلاغي القائم على الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، لان التقابل هنا قائم بين صورتين متضادتين في بناء فني قائم على التقابل في الصورة، ويبدو لي هذا الاسلوب جليا في شعر ابن زمرك الغرناطي الاندلسي الذي جمع هذا التضاد والتقابل في صور جمعت الطبيعة الهادئة بصور الحرب والصراعات والممدوحين من الملوك المحاربين.

يستقي الشاعر الكثير من بيان شعره من المحيط الخارجي والبيئة الطبيعية المحيطة، والشعر شديد الصلة بتلك الطبيعة ذلك ان الشاعر ينسج ابياته من خلال ما تثيره الطبيعة في داخله من احاسيس، فان كان يتغزل يذهب الى اجمل عناصر الطبيعة ليقرنها بحبيبته، وان كان يمدح فيستقي اعظم ما في الطبيعة من صور الفخامة ليسبغها على ممدوحة، فالقوة من الاسد والرشاقة من الخيل والصبر من الناقة والكرم من البحر والندى والمطر والنجم الى غيرها من الموضوعات التي يطول شرحها، وهكذا ينطبق على كل الاغراض الشعرية تقريبا فضلا عن المعجبين بالطبيعة نفسها واتحادهم معها ومناجاتها باجمل صورها، فهذا الذي يشاركها شكواه وحزنه وحنينه المتمثل بالوقوف على الطلل، واخر يتحد معها من خلال مناجاتها عند الغروب او في الليل، والذي يهمنا في هذا البحث هو بيان اهمية الطبيعة ودورها في نشأة العمل الابداعي المتمثل بالقصيدة الشعرية، لذا فمن خلال ما اشرنا اليه نجد للطبيعة تاثير هام وواضح لدى المبدع في كل زمان ومكان، ففي العصر الجاهلي يستقي الشاعر من البيئة البدوية صورا وادوات شعرية تسهم في بناء قصيدته فنيا، كذلك الشاعر الذي جاء بعده والمتمثل بالعصر الاسلامي فالعباسي، اذ نرى تاثر الشعراء بامور اخرى جديدة دخلت على بيئتهم التي يعيشون بفعل التمدن الحضاري الذي وصلوا اليه، فضلا عن دخول الشاعر العربي الى بيئات حضرية مختلفة عن البيئة البدوية، حيث شاع الجمع بين البيئة البدوية وتاثيرها على القصيدة العربية وذلك بعدها اسس فنية ثابتة فيها والتي تسمى بعمود الشعر العربي والمتمثل بالوقوف على الطلل ووصف الرحلة والناقة، ووصف الفرس وحمار الوحش الى غيرها من اللوحات التي اصبحت بمرور الوقت تقاليد فنية لا يمكن الخروج عليها عند النقاد، وبين الحياة الحضرية وما اضفتها من تقاليد مدنية واختراعات ادخلتها الحياة المتمدنة اليهم من حياة القصور والحدائق الغناء ومجالس اللهو

والغناء الى غيرها من الصور، كل هذا نراه مؤثرا في العملية الابداعية بطريقة مباشرة وغير مباشرة ولكن الذي يهمنا هو بيان الكيفية التي تأثر بها الشاعر الاندلسي مع مفردات البيئة الغناء وكيف عكس ذلك في شعره.

ومن الجدير بالذكر ان الكثير من الباحثين اخذوا على عاتقهم دراسة ذلك الامر وخصصو له في مؤلفاتهم فصول عديدة(٣) اذ اجمع المؤرخون على ان الاندلس كانت بلادا خضراء كثيرة الخصب والمياه تشبه دوحة غناء مترامية الاطراف، كما ان الخصب يستتبع الغنى فان الغنى يستتبع الازهار والاشجار والبناء المترف الجميل الذي يكثر فيه الخزف والترصيع حيث قام الاندلسيون في بنائهم ما يدهش الناظر ويثير الخاطر(٤) اذ يقول لسان الدين ابن الخطيب (خص الله بلاد الاندلس ما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها) (٥) كما قد يشير لنا ذلك من تمسك الاندلسي بارضه وحبه وتاثره بهذه الارض من جهة اخرى لهذا فاننا وجدنا ما يميز الشاعر الاندلسي عن غيره في هذا المجال هو ان الطبيعة عنده اصبحت ظاهرة فنية بارزة ومؤثرة ولها وجود وصور مختلفة في الابداع الفني للشاعر الاندلسي واول ما يصادفنا هي تلك الابيات الشهيرة لابن خفاجة في وصف الاندلسي بجنة الخلد ويقابل صورتها بسقر لإبرازها وتوضيحها اكثر لان اقتران الشيء بضده يبين للمتلقي صورة اوضح عنه فثنائية الجنة سقر جاءت هنا حسب اعتقادنا للتركيز على صورة الاندلس المشرقة اكثر والتاكيد على جمالها وحسن طبيعتها اذ يقول(٦):

ياهل الاندلس لله دركم
ماء وظل وانهار واشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تخشوا بعد ما تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة نار

ان امتزاج الشاعر الاندلسي بالطبيعة يتضح لنا من خلال استقصائنا لبعض شعراء الاندلس اذ نراهم معها ويتميزون بها فاذا ما ذكر شعر الطبيعة ذكر شعراء الاندلس، وهذا يمكن تلمسه من خلال ما وجدناه من امثلة على سبيل الاستشهاد لا الحصر والا فالامر يتطلب منا احصاءات لجميع دواوين شعراء الاندلس الا اننا من خلال استقرانا لبعض الامثلة وجدنا الطبيعة حاضرة ومتغلغلة في داخل القصيدة الاندلسية لتصبح سمة بارزة من سماتها وظاهرة مميزة فيها، وهذا على عكس ما ذهب اليه الدكتور جودت الركابي الذي قال(بقى شاعر الطبيعة الاندلسي على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة بصورها ويزخرفها ببصره ويجسمها ويجملها بخياله فاجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائما الروح)(٧) فاذا ما اردنا الرد على هذا الرأي اخذنا مثالا لشاعر اندلسي اخر هو ابن زيدون اذا نراه يتحد مع الطبيعة ويلونها حسب احساسة ومشاعره فيعقد هو الاخر ثنائية بين الماضي السعيد ونظرته الى الطبيعة الغناء وبين الحاضر الحزين وما يشاركة به مع الطبيعة من لمحات حزينة متمثلة باعتلال النسيم واشفاقه عليه ودمع الزهر الرقراق ونعاس النيلوفر هنا يتبين اتحاد الشاعر مع الطبيعة واستنطاقها نتيجة لما يحسه من مشاعر فيوظف صورها الغناء في حال الحب واللحظات الجميلة من جانب وحال الحزن والفراق واللحظات الحزينة من جانب اخر اذ يقول(٨):

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والافق طلق ومرأي الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في اصائله
كانه رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه القضي مبتسم
كما شققت عن اللبات اطواقا
يوم فايام لذات لنا انصرمت
بتا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر
جال الندى فيه من مال اعناقا
كان اعينه اذا عاينت اراقي
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تالق في ضاحي منابته
فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق
وسنان نبه منه الصبح احداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا

وهذا ما اشار اليه ايضا د. سيد نوفل اذ يقول" انها قصيدة تموج فيها عاطفتان"(٩) وهذا ما يتفق مع ذهبنا اليه من اندماج الشاعر مع الطبيعة وتلونها بمشاعره من خلال عقده هذه الثنائية مما جعل الطبيعة ظاهرة فنية في شعرة وخاصة الغزل منه. ومن هنا جاء اختيارنا لشعر ابن زمرك اذ تعامل مع الطبيعة بصورة مختلفة تجاوزت الوصف الفوتغرافي لمفردات البيئة و واثرها في النفس الى صورة جديدة مقترنة بالحرب والصراع والفخر، بما يعد ظاهرة جديدة في الشعر الاندلسي تفرد بها ابن زمرك مرتبطة بالعصر المضطرب الذي عاش

فيه.

من هو ابن زمرك:

هو ابو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك الغرناطي، اصله من شرقي الاندلس ومنها نزع اسلافه الى غرناطة(١٠)، ولد سنة ٧٣٣ه لازم حلقات الكتاب منذ صغره وتلقى الدراسة القرآنية، ثم تدرج في طلب العلم والمعرفة، على يد ابرز مشايخ عصره فقد درس النحو على يد ابي عبد الله بن الفخار، والفقه على يد ابي سعيد بن لب، ودرس علم الاصول على يد ابي علي منصور الزواوي، وبرع في الادب بعد اتصاله ب لسان الدين بن الخطيب وتردده على لب والشاعر ابن اللوشي كما اختص بالفقيه المحدث ابي عبد الله بن مرزوق، واخذ العلوم العقلية على يد الشريف التلمساني، واخذ اجازة الحديث عن قاضي الجماعة اب البركات ابن الحاج(١١).

اما شعره فقد وصل الينا من خلال ديوانه الذي يعد صورة تعكس ملامح العصر في احداثه السياسية الكبرى، وخصائصه الحضارية التي تحدد صفات المجتمع الاندلسي في القرن الثامن الهجري(١٢)، كما وصف ابن الخطيب شعره بقوله:

"ان شعره مترام الى نمط الاجادة خفاجي النزعة، كلف بالمعاني البديعية، الالفاظ الصقيلة، غزير المادة"(١٣).

توفي ابن زمرك في سنة ٧٩٧ه اي عاش اربعا وستين سنة قضى منها قرابة النصف قرن في خدمة دولة الاحمر فقد كان كاتبا و وزيرا للغني بالله فضلا عن كونه كاتبا وناثرا وشاعرا(١٤)، ولهذا فقد وجدنا ان اغلب قصائد الديوان هي في غرض المديح.

الصورة والمشهد عند ابن زمرك:

شكلت الطبيعة عند ابن زمرك صورا اخرى فرضتها عليه اضطرابات العصر الذي ينتمي اليه(١٥)، اذ انه ينتمي الى اخر عصر من عصور الاندلس والذي كان حافلاً بالاخطار الخارجية والداخلية مما جعله في حالة توجس وقلق دائم واحساس بالخوف من زوال دولة الاندلس على يد اعدائها المتمثلين بالاسبان، لذا فقد انعكس ذلك الخوف على شعر الشاعر مما جعله يسخر اجمل شيء من حوله الا وهو الطبيعية الساحرة لتلك البلاد في صور ابعد ما تكون عن تلك الطبيعة الغناء، وهذا ما سنراه من خلال بعض الامثلة ومنها قصيدة مدحية طويلة يمدح بها ابن زمرك الغني بالله مطلعها(١٦).

هنا بنصر الدين انجز موعدا
زجرنا به الطير الميامين اسعدا

اذ يسترسل الشاعر بوصف الممدوح مع التركيز على الفخر بالاجداد والتذكير بما حققوه مع النبي صلوات الله علية من فتوحات اهمها فتح مكة، ثم الربط بشجاعة الممدوح الذي يستقي من هؤلاء الاجداد الصفات ومنها الشجاعة والاقدام والتصدي للاعداء مؤكدا على دور الممدوح وشجاعته في ذلك من خلال وصف جيش الممدوح وقوته، وكان الشاعر يحث الممدوح بطريقة غير مباشرة الى التصدي لاعداء الاندلس المتربصين بها الشر دائما، واحساس الشاعر الدائم بالخطر المحدق بهم، واننا نرى ارتباط الطبيعة واضحا وجليا في ذلك من خلال قوله(١٧).

بمن حفت الرايات تحسب انها
ازاهير روض دبجتها يد الندى

اذ يتجسد مشهد لرايات الجيش ويشبهها بصورة ازاهير الروض، وهنا يبدو التضاد في الصورة المتقابلة جلي ، فاين الازاهير الرقيقة من رمز العنف الذي تحمله رايات الجيش المقبل على الصراع وسفك الدماء؟؟..هذا التعارض ساهم في خلق التوتر الدلالي في القصيدة عبر التضاد في عناصر تشكيل الصورة، بل عبر خلق الامكانات البارعة في توظيف مفردات اللغة العادية واليومية التي يمر بها في بئته الطبيعية. بعدها ينتقل الى صورة اخرى(١٨).

وهالات جيش خلف سحب عجاجه
تحف ببدر بالكمال قد ارتدى

وهنا ايضا يجمع بين البدر المكتمل والعجاج الذي يخلفه الجيش في خضم حركته، لكن الصورة هنا تبدو اكثر اندماجا وتصنع مشهدا متجانسا رغم تضاده، فالعجاج احتضن البدر ولم يحجبه بل صارله بمثابة الهالة التي تبرز جمال نوره، اذ اعتمد الشاعر اسلوب التراكم الدلالي للتضادات داخل نسيج القصيدة، للوصول الى مشهد مكتمل في سياق القصيدة ككل.

ثم يسترسل الشاعر في وصف الجيش بصورة متلاحقة يصور من خلاله مشهدا حربيا تتناغم فيه الطبيعة وتسخر لاجل الظفر في المعركة من الاعداء المتربصين بها شرا اذ يقول(١٩):

عقدت باعراف الجياد عزيمة
تلا حزبك الانفال منها مجودا
واجريت في سحب القتام بوراقا
ترى الرق في اثارها مترددا
تخط على الصم الصلاب محاربا

افامت بها صرعى حسامك مسجدا
اريتهم نار الضبا فتمجسوا
وخروا لها فوق البسيطة سجدا
وكم ذابل يهتز في كف دارع
فقلت قضيب في غدير تاودا
وكم دراع ياوي الى ظل رايه
فقلت غدير تحت دوح تسردا
وكم راية حامت على فتح معقل
فقلت عقاب حول وكر تلددا
ونجم سنان في دجا النقع ثاقب
اذا ماخبا نجم السماء توقدا
وسحب قتام بالسهام مرشة
اذا امطرت نار الحروب تزيدا
وابيض رقراق الصفيح بنهره
قد استعذبت اهل الضلالة موردا
اذا ما طفت فيه حباب رؤسهم
رايت له خدا اسبلا موردا
ولم ار مثل السيف يضحك فاتكا
ويكسو ثياب الفخر مهما تجردا

يفصل الشاعر من خلال الابيات السابقة صورا متعددة للطبيعة يسبغها على صورة المعركة والآلات الحرب، فيبدأ بتصوير الجياد ويصفها بالعزم والقوة، ثم السيف الذي يعلو بريقه عن البرق العادي من هول المعركة والذي يصف ظلامها بالسحب القتام، بعدها ينتقل الى تصوير جنود جيشه من رماة وفرسان بصور متلاحقة كلها مستقاة من طبيعة الاندلس الخلابة، فصورة الرمح بيد بطل من جنوده، كانه غصن بان في غدير ماء يميل مع النسيم،وهي صورة مترفة تتناقض مع الحرب لكن تتجانس وطبيعة حياة اهل الاندلس المحاطة بالغدران والنسائم، وصورة البطل نفسه يحمل راية كانه في غدير ماء صاف يعكس تشابك اغصان الاشجار، وصورة الراية بيد الجندي يكر بها ويحوم حول معقل من معاقل العدو كانها صورة عقاب يحول حول وكره استعدادا للنزول، وصورة الرمح كانها صورة نجم متوهج، وصورة المعركة المظلمة كانها فضاء سماء مليئة بالسحب القتام تنير بالشرر المتطاير من السهام كانه مطر غزير، وصورة السيف الذي يصفه بالنهر، وصورة السيف الملطخ بالدماء كانه نهر احمر لكثرة الدماء، فتلاحق هذه الصور جاء ليرسم مشهدا للمعركة الدامية بين جيش المسلمين بقيادة الممدوح واعدائهم المتربصين بهم شرا.

وكانت عناصر هذا المشهد كلها ما خوذة من الطبيعة الاندلسية، فالغصن بيد الجندي، والغدير ذي الماء الصافي المترقرق، والعقاب، ونجم السماء المتوهج، كلها عناصر من الطبيعة يمكن استغلالها من قبل اي شاعر لرسم صورة غزلية او حتى مدحية او وصفية استغلها الشاعر ليسبغها على معركة حامية الوطيس فيها الظلام الدامس الناتج من غبار المعركة لشدتها ما هو الا دليل على قدرة الشاعر على توظيف عناصر متضادة بين الطبيعة الجميلة والحرب والمعرقة بقسوتها، فضلا عن جعلها رمزا للاندلس ذلك ان استخدامه لصورة الطبيعة في تشكيل صورة المعارك والقتال امر في غاية التعقيد ينم عن اصرار الشاعر على حضور الاندلس في خاطره من خلال طبيعتها الغناء.

وفي قصيدة مدحية اخرى يكرر الشاعر الموضوعات ذاتها فهو يذكر الاسلاف ويفتخر بما حققوه من انتصارات وكانة يذكر الممدوح بالماضي ومفاخرة ليشد ازره لمجابهة خطر الاسبان الا ان الشاعر في كل هذا يستخدم الطبيعة وسيلة له وكانه يضع هواية جديدة للشاعر الاندلسي من خلال ذلك، اذ ان استخدام الطبيعة في مثل هذه الموضوعات ما هو الا طابع يميز الاندلسي عن غيره فيقول(٢٠):

اذا اشتجر الخطي من فوق صفحة
تقول خليج تحت دوح تهدلا
ومعتدل لدن القوام مقوم
اذا اثمر الفتح الجني تميلا
ونهر حسام سال نهر نجيعه
فابصرت منه جدولا مد جدولا
ودوح قنا في ظلها ذلت العدى
فظليلها قد عاد فيه مذللا
فقل لعميد الروم يرقب فتكة
تقارب فيها حتفه وتعجلا

اذ نرى الشاعر قد رصد مجموعة من الصور للرمح والسيف مسبغا عليها صفات وصور من طبيعة الاندلس الجميلة(اشتجر الخطي من فوق صفحة) و(اثمر الفتح الجني تميلا) و (نهر حسام سال نهر نجيعة) و(دوح قنا في ظلها ذلت العدى).

اذ ان الشاعر من خلال هذه الصور استطاع جمع المتناقضات في صور مركبة رسم من خلالها مشاهد لمعارك وساحات قتال لجلب انتباه المتلقي لما يريد ان يقوله الشاعر من ان طبيعة الاندلس هي ايضا حربا على العدو وهذا ما نراه في مشاهد اخرى ايضا فيقول ابن زمرك(٢١).

ومرسلها ملء الفضاء كتائبا
تدين لها غلب الملوك باذعان
حدائق خضر والدروع غدائر
وما انبتت الا ذوابل مران
تجاوب فيها الصاهلات وترتمي
جوانبها بالاسد من فوك عقبان

فمن كل خوار العنان قد ارتمى
به كل مطعام العشيات مطعان

اذ يصف لنا الشاعر الجيوش كونها حدائق خضر غناء فيقابل بين صورة الجيوش الجرارة بقوتها وعددها وبين الحدائق والغدران وكانه يرمي من وراء ذلك الى ان طبيعة الاندلس هي ايضا جيشا يقابل العدو ويحاربه ليزيد من همة الممدوح وجيشه وليرسل رسالة مفادها ان اهل الاندلس لا يحاربون وحدهم وانما الطبيعة والارض تحارب معهم، فيؤكد على هذا الامر حتى في قصيدة وصفية يصف فيها الربيع اذ يشير الشاعر الى المديح الذي يفضي الى وصف خوف العدو حتى من الطبيعة التي تحولت الى جيش مدجج بالسلاح مستعد للقتال والقضاء على العدو فيقول(٢٢):

امولاي يامولاي دعوة مخلص
يرجي لاعباد الفتوح مابا
ويامل ان تبقى عزيزا ممتعا
تمهد للدين الحنيف جنابا
وتوسع اقطار البلاد مسرة
وتبلغ امال الملوك رغابا
وتضرع من صيد المصاعب اوجها
وتخضع من غلب الملوك رقابا
عدوك قد اعدوه رعبك بالردى
واصلاه من قبل العذاب عذابا
يقلب تحت الخوف مقلة ساهر
ويزجر لليل البهيم غرابا
وقد ظن ان الشهب لمع اسنة
واخفى لها جنح الظلام حرابا
وان حسام البرق سيفك منتضى
يفارق من طف السحاب قرابا

اذ نرى الشاعر في هذه المقطوعة قد عكس الامر فهنا يصور الطبيعة كانها جيوش تحمل الرماح والسيوف مستعدة للقتال وذلك حتى يعكس لنا مدى خوف العدو وتهيبه من الممدوح وجيشه الذي امتزج مع طبيعة الاندلس وتوحد معها لقتال العدو المشترك لهما، فليس اهل الاندلس وحدهم المعنيين بقتال الاسبان ولكن ارضها وطبيعتها معنية بقتالهم ايضا، فالشهب كانها لمع اسنة والبراق كانه سيف الممدوح المتهيئ للقتال، اذ يمعن الشاعر في تكرار هذه الفكرة تاكيدا منه على تحول طبيعة الاندلس الى اسلحة بيد ممدوحة وجيشه يرد به كيد اعدائه فضلا عن تاكيده على تصوير الاعداء بصورة الخائف المتهيب من عدوه امعانا بابراز شجاعة ممدوحة، اذ يصور العدو بصورة الخائف المتردد الذي لا يمكن ان يحكم عقله من شدة خوفه.

لذا فقد حققت الطبيعة حضورا في شعر ابن زمرك حتى اننا نكاد نجزم بان صوره بكل انواعها مستقاة من الطبيعة فاذا ما نظرنا الى غرض المديح والذي يعد هو الغرض الغالب على الديوان فاننا نجد الطبيعة حاضره به حضورا فاعلا .

مشاهد الطبيعة مقرونة بالممدوح

يسخر ابن زمرك كل ما في الطبيعة الجميلة لابراز ما للمدوح من صفات حتى يغالي في ذلك احيانا ويجعل جمال الطبيعة وفتنتها وحتى قوتها هي جزء ماخوذ من الممدوح اذ يقول(٢٣).

انت الصباح انرت كل دجنة
والصبح لا يخفى ولا يتستر
واذا الصباح تبجلت انواره
بالله ما عذر امرئ لا يبصر
وكذا العوالي في المعالي اسندت
عن راحتيك حديث فخر يؤثر
من قال عن يمنى يديك غمامة
فازيده ان الانامل ابحر
حسدتك شمس الافق ياملك العى
فالوجه منها بالعشية اصفر

وامعانا من الشاعر في المبالغة يجعل الممدوح فوق الطبيعة وسخاؤها اذ يقول(٢٤).

لك طلعة قد اخجلت بدر الدجى
فلذاك سيما النقص فيه تظهر
لك راحة فضح الغمام سخاؤها
فلذا تجهم وجهها اذ تمطر
لك عزمة نثر الصباح لواءها
فيها تباشير الصبح تبشر

اذ يتبين من ذلك ان ابن زمرك قد جعل الطبيعة متنفسه الوحيد واداته بالتعبير عن خوالج نفسه حتى وان كانت صور معكوسة مبالغا فيها لتصوير الممدوح باحسن صورة، اذ يمتزج ابن زمرك مع الطبيعة ويتوحد معها ليرسل لنا رسالة شعرية تنم عن عشق الشاعر الاندلسي لطبيعته وامتزاجه معها.وفي نص اخر يمدح فيها الشاعر احد السلاطين قائلا (٢٥)

وردنا به للجود كف خليفة
تجر اذيال الغمام ولا فخر
ويابعد ما بين الغمام وكفه
فأنمل كفيه لنا ابحر عشر

اذ يبني المشاهد الصورية في هذين البيتين على التضاد، فيشكل صورة لممدوحه الكريم، وجعل كفه هو الجود بعينه ولا يضاهي بذلك الغمام الذي يجعله خلفه في الكرم، ثم يصرح في البيت الثاني عن الفارق الكبير بين كرم انامله التي صورها بابحر عشر وبين الغمام وما يجود

به من مطر فهذه المشاهد التي تصور كرم الممدوح يعضدها بمشهد الغمام الذي يقصر عنه في الكرم والجود.

اما المقدمات الغزلية لدى ابن زمرك في قصائده المدحية فهي لا تخلو هي الاخرى عن هكذا مشاهد تستقي من الطبيعة لتعطي صور لمشاهد فيها من التضاد الشيء الكثير ومنها قوله(٢٦)

روض اذا رمت ان اجني ازاهره

تسل الحاظه اسياف حراسي

مددت عيني الى فتان زهرته

حتى غدا زهره شيب على راسي

ما جال طائر قلبي في حدائقه

الا تخبط في اشراك وسواس

اذ يشكل في النص اعلاه صورا استعارية تبنى على التضاد بين استعارته لالفاظ الطبيعة الخلابة لوصف محبوبة من ازهار وطيور في مقابل استعارته لالفاظ الطبيعة نفسها ولكن لوصف اله ومعانته من هجر محبوبته وصدها عنه .

البناء الفني للصورة المتضادة في قصائد ابن زمرك:

بعد ان اطلعنا على النصوص الشعرية التي كانت بها الطبيعة حاضرة يمكننا ان نلخص جملة امور منها:

١- ان البناء الفني لهذه النصوص جاء في الاغلب على القصائد الطويلة ذلك ان حاجة الشاعر الى الاسترسال في تصوير الممدوح اولا ثم تصوير جيشه وساحات القتال والمعارك كل هذا يتطلب من الشاعر نفسا طويلا واسترسالا في تصوير صور الطبيعة مقابل صورة الممدوح كذلك تصوير صورة الطبيعة مقابل صور الجيش في المعركة.

٢- اما الوسائل الفنية فقد اعتمد ابن زمرك الجمع بين التعارض القائم على التضاد بين صورة الطبيعة الوادعة وبين صورة المعارك والممدوح المقاتل، فسخر الطبيعة في قصائده على التصوير ورسم المشاهد سواء كانت مدحية او وصف معارك ذلك ان الصورة الشعرية هي الاساس في العملية الابداعية لانها (الجوهر الثابت والدائم في الشعر)(٢٧) فضلا عن ان الصورة عند ابن زمرك مشحونه بالعاطفة ذلك لانه جعل الطبيعة المعبر عنه من خلال رسمه لصورها اذ تعرف الصورة على انها(رسم قوامه الكلمات المشحونه بالاحساس والعاطفة)(٢٨).

وقد اعتمد ابن زمرك في رسم هذه الصورة على الفنون البلاغية ومنها.

أ- التشبيه: والذي يعد من اهم الاساليب البيانيه وهي(الدلالة على مشاركة امر لاخر في معنى)(٢٩) فالصورة التشبيهية جزء من التجربة الشعورية وتاتي متنوعة في اشكال وقوالب توافق تعبير الفنان وتنتقل معه سوى في نظريته الخاطفة او تامله الطويل فضلا عن كونها تعينه في الكشف عن خوالج نفسه ومكنونات صدره(٣٠)، فقد اعتمد ابن زمرك على هذا الفن البياني في بناء صورة الشعرية ومنها في مثال سابق.

بمن حفت الرايات تحسب انها

ازاهير روض دبجتها يد الندى

اذ يرسم مشهد الرايات ويشبهها بمشهد من الطبيعة غاية في الروعة الا وهو الروض المليء بالازاهير المتفتحة من جراء الندى، اذ يجعل صورة مقابل صورة وكذلك في مثال اخر يقول(٣١):

همام يروع الاسد في حومة الوغى

كما ارعت الاسد الظباء الحواريا

مناقب تسمو للفخار كانما

تجارى الى المجد النجوم الجواريا

يشبه الشاعر في هذه الابيات ممدوحة بالاسد الا انه يبالغ ويرسم لنا في هذه الابيات صورة مقابل صورة، اذ يجعل ممدوحة اقوى من الاسد في حومة الوغى حتى انه يبالغ في تصوير هذا، اذ جعل الاسد يخاف منه لشجاعته مقابل صورة الاسد وشجاعته في البراري اما الضباء فهو تصوير للمدوح وشجاعته الا انه يرسم لنا صورة تشبيهيه قائمة على ما في الطبيعة من باس وقوة، كذلك يشبه مناقب الممدوح بالنجوم وهذا يشير الى قدرة الشاعر على التركيب والتصوير.

ب-الاستعارة: وهي ضرب من ضروب المجاز وتعد ابلغ واجمل في التصوير لانها تعتمد على التخييل وتنقل المعنى المجرد الى تعبير مجسد من غير التجاء الى ادوات التشبيه او المقاربة(٣٢).

وقد اعتمد ابن زمرك في بناء صوره على الاستعارة، اذ استعار كل ما في الطبيعة واسبغها على الجيش وادوات القتال في ساحة المعركة فيقول(٣٣).

ونهر حسام سال نهر نجيعه

فابصرت منه جدولا مد جدولا

ودوح قنا في ظلها ذلت العدى

فظليلها قد عاد فيه مذللا

ج- الكناية: وتعد من اساليب البيان التي اشار اليها الجرجاني بقوله(ان الكناية

ابلغ من الافصاح)(٣٤) ولهذا فهي لها مزية في رسم الصورة الشعرية من خلال ابتعاد الشاعر عن المباشرة والتحديد، وقد اعتمد ابن زمرك في الكثير من صورة على الكناية اذ يقول(٣٥).

لك راحة فضح الغمام سخاؤها

فلذا تجهم وجهها اذ تمطر

اذ تجهم وجه الغمام عند المطر كناية عن كرم الممدوح وسخائه، لذا فالشاعر رسم صورة بليغة ابرز من خلالها صفات الممدوح وخلاله الكريمة التي لا يرقى اليها حتى كرم الطبيعة وهذه صورة مبالغ فيها.

٣- اما من الناحية الموسيقية فقد اعتمد الشاعر على الجناس والمقابلة والتكرار في اغلب صورة الشعرية التي اعتمد فيها على الطبيعة ومنها قولة(٣٦).

يامن اذا نفحت نواسم حمده

فالمسك يحسد طيبها والعنبر

يامن اذا تليت مفاخر قومه

فالدهر يملئ والمعالي تسطر

يامن اذا جليت محاسن ملكه

في مرقب بصر البصائر يبهر

يسهم التكرار في هذه الابيات في تعزيز الجانب الصوتي من خلال التناغم الصوتي وتقوية الجرس الموسيقي فضلا عن تدعيم الجانب الدلالي للابيات من خلال التاكيد على صفات الممدوح وخلاله الكريمة.

الخاتمة:

تعد الطبيعة عند الشاعر الاندلسي ظاهرة فنية بصورة عامة وعند الشاعر ابن زمرك بصورة خاصة، اذ شكلت الطبيعة عنده صور اخرى فرضتها عليه اشكالية العصر الذي ينتمي اليه، مما جعله في حالة توجس وقلق دائم واحساسه بالخوف والخطر، لذا فقد وجدنا انعكاس ذلك الاحساس على شعر الشاعر مما جعله يسخر اجمل شيء من حوله الا وهو الطبيعة الساحرة لتلك البلاد في صور ابعد ما تكون عن تلك الطبيعة الغناء مما يفضي بنا الى جملة استنتاجات منها:

١- امتزاج الطبيعة مع الشاعر وتحاده معها مما يجعلها متنفسه الوحيد واداته للتعبير عن خوالج نفسه وما يريد ان يقوله من خلال الشعر.

٢- جعله الطبيعة رمزا للاندلس ذلك ان اتخذه لصورة الطبيعة في تشكيل صور المعارك والقتال امرا في غاية التعقيد يضفي التناقض بين اطرافها عليها جمالا ظاهرا، بما ينم عن اصرار الشاعر على حضور الاندلس في خاطره من خلال طبيعته الغناء.

٣- قدرة الشاعر وابداعه في جمع المتقابلات في صور مركبة مستقاة من الطبيعة الاندلسية رسم من خلالها مشاهد لمعارك وساحات قتال لجلب انتباه المتلقي لما يريد ان يقوله الشاعر.

٤- جاءت نصوص الشاعر الوصفية المتعمدة على الطبيعة طويلة من حيث البناء وقد اعتمد فيها على الصورة البيانية المتقابلة مستخدما التشبية والاستعارة والكناية فضلا عن تعزيز الجانب الموسيقي بالاعتماد على الفنون البديعة ومنها التكرار.

الهوامش:

١. مادة ضد معجم العين للخليل بن احمد الفراهيدي، ومادة ضد لسان العرب لابن منظور

٢. نفسه

٣. الادب الادنلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د.احمد هيكل دار المعارف ط٧، ١٩٧٩: ٢٧٨ و الادب الاندلسي موضوعاته وفنونة د.مصطفى الشكعة دار العلم للملايين ط، ٤ ١٩٧٩: ٢٤٧ وفي الادب الاندلسي د.جودت الركابي دار المعارف القاهرة ١٩٨٠: ١٢٤.

٤. ينظر فن الوصف وتطوره في الشعر العربي تاليف ايليا حاوي الطبعة الاولى ١٩٦٠: ٢/ ٨٤.

٥. ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض تأليف شهاب الدين احمد التلمساني حققه مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٣٥٨ ه – ١٩٣٩: ١/٦١ز.

٦. ديوان ابن خفاجة تحقيق مصطفى غازي دار المعارف ١٩٦٠: ٢.

٧. في الادب الاندلسي د.جودت الركابي دار المعارف القاهرة ١٩٨٠: ١٣٤.

٨. ديوان ابن زيدون شرح د.يوسف فرحات، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ٢٠٠٦: ١٩٤– ١٩٥.

٩. شعر الطبيعة في الادب العربي ط٢ القاهرة: ٢٦٧.

١٠. الاحاطة في اخبار غرناطة تاليف ابي عبدالله الشهير بلسان الدين بن الخطيب شرحه وقدم له الاستاذ د.يوسف علي طويل منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان: ١٩٨/٢.

١١. نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب تاليف الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني حققه د.احسان عباس، دار صادر بيروت ١٣٨٨ه ١٩٦٨م:١٤٧/٧.

١٢. ينظر ديوان ابن زمرك الاندلسي محمد بن يوسف العربي تحقيق محمد توفيق النيفر دار الغرب الاسلامي:٦.

١٣. الاحاطة: ١٩٨/٢.

١٤. ينظر ديوان ابن زمرك: ١٩.

١٥. تعد دولة بني الاحمر اخر دولة اسلامية في الاندلس تمتد من عام ٦٣٥ه وحتى عام ٨٩٨ه وكانت تضم ثلاثة مدن رئيسية هي غرناطة والمرية ومالقة ينظر المعطار في خبر الاقطار ابن عبد المنعم الحميري ت٧٢٧ه تحقيق د.احسان عباس ط٢ مكتبة لبنان ٢٣/١٩٨٤.

١٦. ديوان ابن زمرك ١٣٢.

١٧. نفسه ١٣٤.

١٨. نفسه ١٣٤.

١٩. نفسه ١٣٤–١٣٥ .

٢٠. نفسه ٥٢.

٢١. نفسه ٤٩٦.

٢٢. نفسه ٢٥٢.

٢٣. نفسه ٤٤.

٢٤. نفسه .

٢٥. نفسه ٧١.

٢٦. نفسه ٦٢.

٢٧. الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب د.جابر عصفور ط٢ ١٩٨٣ التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ٧.

٢٨. الصورة الشعرية سبيل دي لويس ترجمة د.احمد نصيف الجنابي واخرين، دار الرشيد للنشر وزارة الاعلام والثقافة العراق ١٩٨٢: ٢١.

٢٩. الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع جلال الدين ابو عبدالله محمد بن قاضي القضاة سعد الدين ابي محمد عبدالرحمن

القزويني ت٧٣٩ه ط٢ مطبعة الجمالية الحديثة- مصر ١٣٩٠ه- ١٩٧١م: ١٥١.

٣٠. ينظر جماليات الاسلوب الصورة الفنية في الادب العربي د.فائز الدايه دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ودار الفكر دمشق سوريا:٩٤.

٣١. ديوان ابن زمرك ١٤٣.

٣٢. ينظر معجم مصطلحات الادب مجدي وهبة بيروت مكتبة لبنان ١٩٧٤: ط٣١: ٣١٥.

٣٣. ديوان ابن زمرك: ٥٢.

٣٤. دلائل الاعجاز: ١١٣.

٣٥. ديوان ابن زمرك:٤٤.

٣٦. نفسه .

المصادر والمراجع:

١- الاحاطة في اخبار غرناطة تاليف ابي عبدالله الشهير بلسان الدين بن الخطيب شرح وطليطة وقدم له الاستاذ د.يوسف على طويل منشورات دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٢- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د.احمد هيكل دار المعارف ط٧ ١٩٧٩.

٣- الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه د.مصطفى الشكعة دار العلم للملايين ط٤ ١٩٧٩.

٤- الايضاح المختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع جلال الدين ابو عبدالله محمد بن قاضي القضاة سعد الدين ابي محمد عبدالرحمن القزويني ت٧٣٩ ط٢ مطبعة الحديثة- مصر: ٥١٣٩- ١٩٧١م.

٥- ديوان ابن خفاجة تحقيق مصطفى غازي دار المعارف ١٩٦٠.

٦- ديوان ابن زمرك الاندلسي محمد بن يوسف العربي تحقيق محمد توفيق النفير ديوان الغرب الاسلامي.

٧- ديوان ابن زيدون شرح د.يوسف فرحات دار الكتب العربي بيروت لبنان ٢٠٠٦.

٨- دلائل الاعجاز في علم المعاني الامام عبد القاهر الجرجاني تحقيق السيد محمد رشيد رضا شركة الطباعة الفنية المتحدة مصر ١٣٨١- ١٩٦١.

٩- في الادب الاندلسي د.جودت الركابي دار المعارف القاهرة ١٩٨٠.

١٠- الصورالشعرية سبيل دي لويس ترجمة د.احمد نصيف الجنابي واخرين دار الرشيد للنشر وزارة الاعلام والثقافة العراق ١٩٨٢.

١١- الصورة الشعرية في التراث النقدي والباغي عند العرب د.جابر عصفور ط٢ ١٩٨٣ التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان.

١٢- الروض المعطار في خير الاقطار ابن عبد المنعم الحميري ت٥٧٢٧ تحقيق د.احسان عباس ط٢ مكتبة لبنان ١٩٨٤.

١٣- معجم مصطلحات الادب مجدي وهبة بيروت مكتبة لبنان ١٩٧٤ ط٣.

١٤- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي تاليف ايليا حاوي الطبعة الاولى ١٩٦٠.

١٥- نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب تاليف الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني د.احسان عباس، دار صادر بيروت ١٣٨٨ه ١٩٦٨م.

١٦- جماليات الاسلوب والصورة الفنية في الادب العربي د.فائز الدايه دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ودار الفكر دمشق سوريا.